

# الإنسان وسؤال الانتماء

في الهوية والكرامة العالمية



# الإنسان وسؤال الانتماء في الهوية والكرامة...

نصير الحسنأوي

سلسلة : مفاهيم (ج: ١)

الإنسان وسؤال الانتماء

الناشر: مؤسسة الأنوار النجفية للثقافة والتنمية

جمهورية العراق / النجف الأشرف

بالإخراج العلمي والفني: مركز القافلة للإنتاج العلمي والإعلامي والفني

٢٠٢٦م / ١٤٤٨هـ

## الإنسان وسؤال الانتماء

في تاريخ الفكر الإنساني، لم تكن المسألة في غياب النماذج الفكرية بقدر ما كانت في قدرة هذه النماذج على استيعاب الإنسان دون اختزاله. فمنذ نشوء التصورات الحديثة عن الإنسان والمجتمع والدولة، ظهرت اتجاهات جعلت الحرية أو العقل أو الطبقة أو الأمة أو السوق أو التقدم محوراً أساسياً لفهم الحياة الإنسانية، وقدّمت كلّ منها إسهامات وأسئلة لا تزال حاضرة؛ غير أن الإشكال يبدأ حين يتحول بُعد من أبعاد الإنسان إلى إطار شامل لتفسير الإنسان كله.

ومن هنا، لا ينبغي أن تُطرح القضية بوصفها مفاضلةً سطحية بين مدرسة نجحت وأخرى فشلت، وإنما بوصفها سؤالاً أعمق:

هل يستطيع أيُّ تصور جزئي أن يستوعب الإنسان في جميع أبعاده: فرداً وجماعة، مادةً وروحاً، وطناً وإنسانيةً، حريةً ومسؤوليةً، حقاً وواجباً؟

## حين يتحول الجزء إلى صورة كاملة

في الليبرالية، احتلت الحرية الفردية مكانةً مركزية، مع تعدد الاتجاهات الليبرالية واختلافها في فهم الحرية والدولة والملكية والسوق. ولذلك لا يصح اختزالها في نموذج واحد؛ لكن يبقى السؤال الفلسفي قائماً: هل تكفي الحرية إذا لم يكن للإنسان تصورٌ عن غايتها ومعناها؟ فالتحرر من الإكراه لا يقدّم، بذاته، جواباً عن سؤال الغاية، كما أن الاستقلال عن السلطة لا يساوي بالضرورة امتلاك معنى للحياة.

أما الماركسية، فقد نقلت مركز الاهتمام من الفرد المنعزل إلى العلاقات الاجتماعية والاقتصادية، وجعلت الاغتراب والصراع الطبقي ونقد علاقات

الإنتاج عناصر أساسية في تفسير المجتمع الحديث. وكان نقد ماركس للاغتراب متصلًا بتصوره للإنسان وقدرته على العمل والإبداع وتحقيق ذاته في علاقات اجتماعية غير مشوهة. غير أن البناء الماركسي اتجه أيضًا إلى تفسير تاريخي ومادي واسع للمجتمع والتغير التاريخي؛ كما ينبغي التمييز علميًا بين النظرية الماركسية نفسها وبين التجارب السياسية التي اتخذت منها مرجعية، فلا يصح اختزال إحداها في الأخرى.

والقومية بدورها ليست صورة واحدة؛ فهي مفهوم متعدد الاستعمالات والصيغ، قد تكون مبدأً للهوية والانتماء السياسي، وقد تتخذ صورة أيديولوجية تجعل الأمة محورًا أساسيًا للولاء السياسي والثقافي. ولذلك لا يصح اختزال آثارها في اتجاه واحد؛ فقد ارتبطت في سياقات بناء الدولة والتضامن، وفي سياقات أخرى بصراعات حول حدود الأمة ومفهوم العضوية فيها.

أما العولمة، فمنهجيا، فلا ينبغي وضعها في مستوى واحد مع الليبرالية أو الماركسية أو القومية؛ فهي ظاهرة تاريخية مركبة تتعلق بتزايد الترابط والحركة والاتصال بين المجتمعات، وقد أخذت أبعادًا اقتصادية وثقافية واتصالية مختلفة. كما لا يلزم من العولمة إلغاء الاختلافات الثقافية؛ فقد بينت أبحاث في الاتصال والثقافة أن ازدياد الترابط العالمي لا يؤدي بالضرورة إلى التجانس الثقافي أو زوال الفوارق.

ومن ثم، فإن النقد العلمي لهذه الاتجاهات لا يقوم على إنكار إسهاماتها، بل على طرح سؤال يتجاوزها جميعًا:

**هل يستطيع تصورٌ جزئي أن يكون إطارًا كافيًا للإنسان في جميع أبعاده؟**

الإنسان أكبر من السوق والطبقة والأمة

يبدأ التصور الإسلامي من نقطة مختلفة؛ فهو لا يؤسس وحدة البشر على السوق، ولا على الطبقة، ولا على القومية، ولا على مجرد التعاقد السياسي، بل على وحدة الأصل الإنساني.

قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

فالقرآن لا يقف بالصد تجاه التعدد ولا يطلب إلغاءه؛ فالناس شعوب وقبائل، لكن وظيفة هذا الاختلاف هي التعارف، لا التفاخر، ومعيار التفاضل ليس النسب ولا القومية ولا الموقع الاجتماعي، وإنما التقوى.

ومن هنا، لا تصبح الهوية الخاصة — وطنًا كانت أو قومية أو ثقافة — معيارًا نهائيًا لقيمة الإنسان؛ إذ يمكن للإنسان أن ينتمي إلى دوائره الخاصة من غير أن يحولها إلى إطار مغلق يحدد قيمته أو حقه في الكرامة.

### وهنا تبرز قاعدة جوهريّة:

الكونية لا تعني إلغاء الخصوصية، كما أن الخصوصية لا ينبغي أن تتحول إلى سجن للإنسان.

من المواطن إلى الإنسان

عرف الفكر الحديث اتجاهات كونية تجاوزت الانتماء الوطني إلى تصور الإنسان عضوًا في جماعة أخلاقية أو سياسية أوسع من الحدود المحلية، مع اختلاف هذه الاتجاهات في أساس الكونية ومجالها.

لكن يبقى السؤال:

ما الأساس الذي يجعل الإنسان مستحقًا للكرامة الكونية؟

في التصور القرآني، لا تُجعل الكرامة الأصلية للإنسان منحةً تمنحها دولة أو جماعة؛ بل يقول تعالى:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠].

فالكرامة هنا تُنسب إلى بني آدم من حيث الأصل الإنساني، لا إلى قوم

دون قوم، ولا إلى جماعة دون أخرى. ولا يعني ذلك أن جميع مراتب القيمة الأخلاقية متساوية؛ فالقرآن يجعل التقوى معياراً للتفاضل عند الله، لكنه لا يسقط أصل التكريم الإنساني.

ويتأكد هذا المعنى في عهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) إلى مالك الأشتر:

«فَانْتَهُمْ صِنْفَانِ: إِمَّا أَخٌ لَكَ فِي الدِّينِ، وَإِمَّا نَظِيرٌ لَكَ فِي الْخَلْقِ.»

فالرابطه الإنسانية لا تلغى باختلاف الدين، كما لا تتحول الخصوصية الدينية إلى مبرر لإهدار أصل العدل والكرامة الإنسانية.

كونية تبدأ من التوحيد

الكونية الإسلامية ليست مجرد اتساع جغرافي للرسالة، وإنما تقوم على أساس عقدي وأخلاقي.

قال تعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]

وقال سبحانه:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]

فالرسالة لا تتحدد بعرق أو إقليم أو طبقة، بل تتوجه إلى الإنسان بما هو إنسان. وفي الوقت نفسه، لا تجعل هذه الكونية العالم مجرد سوق مفتوحة، ولا تجعل التواصل العالمي مساوياً للذوبان الثقافي؛ إذ إن وحدة البشر يمكن أن تقوم مع بقاء اختلافاتهم، ما دام الاختلاف لا يتحول إلى إلغاء للكرامة أو ذريعة للظلم.

## الحرية في أفق العبودية لله

قد يبدو الجمع بين الحرية والعبودية لله متناقضًا، غير أن التصور الإسلامي ينظر إلى المسألة من زاوية أخرى: ليست القضية مجرد إزالة كل قيد، بل تحديد مرجعية الإنسان وغاية حريته.

فالإنسان قد يتحرر من سلطة ليخضع لسلطة أخرى، وقد يتخلص من إكراه خارجي ليصبح أسير الهوى أو المصلحة أو المادة. أما في التصور الإسلامي، فتحرير الإنسان لا ينتهي إلى الفراغ، بل يرتبط بعبوديته لله، وبمعرفته لغاية وجوده، وبمسؤوليته عن اختياراته.

ومن هنا، ليست الحرية أن يفعل الإنسان كل ما يستطيع، وإنما أن يمارس إرادته ضمن تصور أخلاقي للخير والمسؤولية؛ فليس كل ما يقدر الإنسان عليه مما يحق له فعله.

وهنا يصبح الالتزام الأخلاقي جزءًا من الحرية، لا نقيضًا لها.

### دوائر الانتماء

لا يطلب الإسلام من الإنسان الاختيار بين هويته الخاصة وإنسانيته العامة؛ فالأسرة، والمجتمع، والوطن، والأمة، والإنسانية، دوائر متداخلة من الانتماء.

والقاعدة ليست إلغاء هذه الدوائر، وإنما منع أي واحدة منها من التحول إلى انتماء مطلق يستولي على الإنسان ويجعل سائر انتماءاته تابعة له.

وهكذا يمكن أن يكون للإنسان وطن ينتمي إليه، وثقافة يعتز بها، ومجتمع يرتبط به، وأمة يتشارك معها القيم، مع بقاء انتمائه الإنساني أوسع من هذه الدوائر جميعًا.

فالخصوصية لا تستلزم الانغلاق، والكونية لا تستلزم الذوبان.

## الكونية ليست شعارًا

لا تكفي تسمية الرسالة «كونية» لإثبات كونيتها؛ فالمعيار الحقيقي هو ما تنتجه هذه الكونية في تصور الإنسان والعلاقات بين البشر.

ومن ثم، فإن الكونية الإسلامية لا تتعلق فقط باتساع المخاطب، وإنما بما تضعه من مبادئ للكرامة والعدل والرحمة وضبط القوة وربط الحرية بالمسؤولية، وبقدرتها على التعامل مع المختلف دون تحويل الاختلاف إلى إلغاء.

وعليه، فالمشكلة ليست في وجود الانتماء، بل في تحول الانتماء إلى اختزال للإنسان أو أداة لاستعباده؛ وليست في وجود الخصوصية، بل في تحولها إلى انغلاق؛ وليست في الكونية، بل في كونيتها التي تذيب الإنسان بدل أن تحافظ عليه.

## الخلاصة

لقد قدّمت الاتجاهات الحديثة أسئلةً وأدواتٍ مهمة، وأسهمت كل واحدة منها في إضاءة جانب من التجربة الإنسانية؛ لكن الإنسان يظل أكبر من اختزاله في السوق، أو الطبقة، أو الأمة، أو الفرد، أو الدولة.

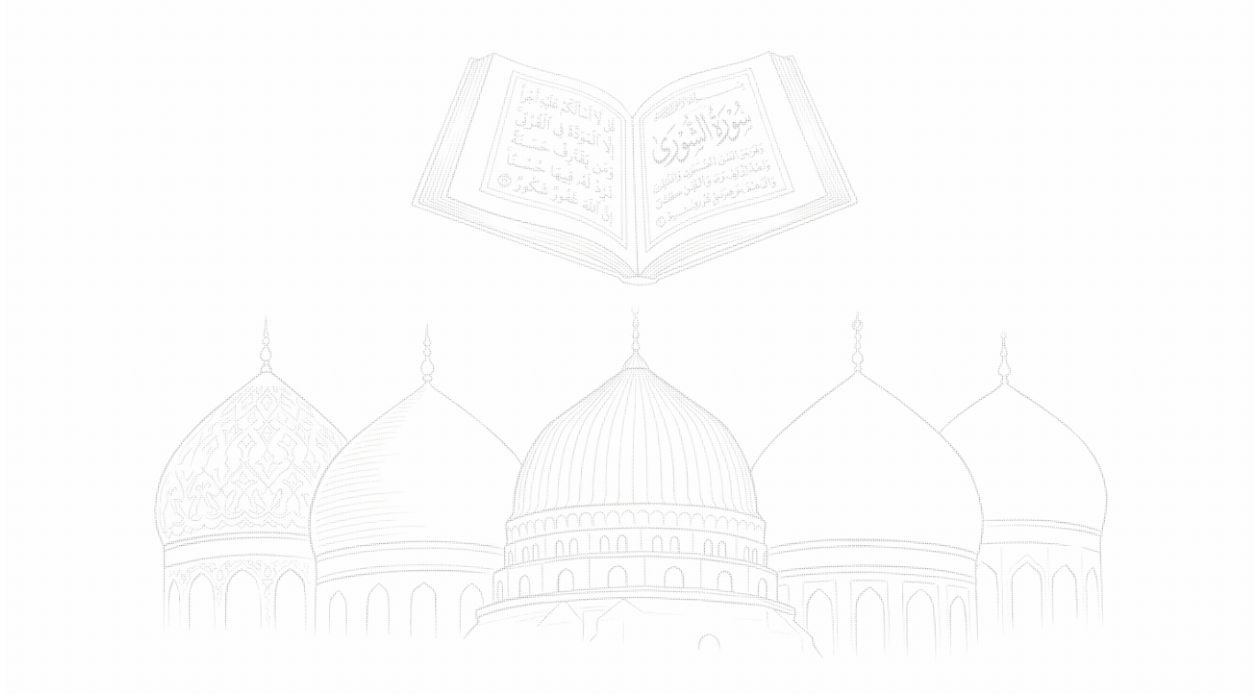
ويبدأ التصور الإسلامي من رؤية متكاملة:

الإنسان عبدٌ لله، مكرّمٌ في أصله، متعدّدٌ في انتماءاته، واحدٌ في أصل إنسانيته، ومسؤولٌ عن حريته وعدله وعمله وعلاقاته.

وعليه، فليست المسألة أن نختار بين الانتماء والكونية، بل أن نبحث عن انتماءٍ يحفظ إنسانية الإنسان، وكونيةٍ لا تلغي خصوصيته، وحريةٍ لا تفصله عن المسؤولية، ووحدةٍ لا تقوم على محو الاختلاف.

## ويبقى السؤال الحضاري:

هل نبحث عن عالم يوحد البشر بإذابة اختلافاتهم، أم عن رؤية توحدهم في الكرامة والعدل والمعنى، مع بقاء اختلافهم مجالاً للتعارف والتكامل؟



## أهم المصادر

١. [القرآن الكريم، سورة الحجرات: ١٣؛ سورة الإسراء: ٧٠؛ سورة سبأ: ٢٨؛ سورة الأنبياء: ١٠٧].
٢. [الشريف الرضي، محمد بن الحسين، نهج البلاغة، الكتاب ٥٣، عهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) إلى مالك الأشتر].
٣. [غاوس، جيرالد ف.؛ كورتلاند، شين د.؛ شميدتز، ديفيد، «Liberalism» Stanford Encyclopedia of Philosophy، مراجعة جوهرية ٢٥ فبراير ٢٠٢٦].
٤. [ليوبولد، ديفيد، «Karl Marx» Stanford Encyclopedia of Philosophy، مراجعة جوهرية ٢٧ مارس ٢٠٢٥].
٥. [ميشيفيتش، نيناد، «Nationalism» Stanford Encyclopedia of Philosophy، نشر ١٩ يونيو ٢٠٢٥].
٦. [كلاينغيلد، بولين؛ براون، إريك، «Cosmopolitanism» Stanford Encyclopedia of Philosophy، مراجعة جوهرية ١٧ أكتوبر ٢٠١٩].
٧. [Ladegaard, Hans J., "Globalizing and Changing Culture," Oxford Research Encyclopedia of Communication, ٢٠١٨].

## المحتويات

|    |                                            |
|----|--------------------------------------------|
| ٤  | ..... الإنسان وسؤال الانتماء               |
| ٤  | ..... حين يتحول الجزء إلى صورة كاملة       |
| ٥  | ..... الإنسان أكبر من السوق والطبقة والأمة |
| ٦  | ..... وهنا تبرز قاعدة جوهريّة:             |
| ٦  | ..... من المواطن إلى الإنسان               |
| ٧  | ..... كونية تبدأ من التوحيد                |
| ٨  | ..... الحرية في أفق العبودية لله           |
| ٨  | ..... دوائر الانتماء                       |
| ٩  | ..... الكونية ليست شعاراً                  |
| ٩  | ..... الخلاصة                              |
| ١٠ | ..... ويبقى السؤال الحضاري:                |
| ١١ | ..... أهم المصادر                          |
| ١٢ | ..... المحتويات                            |